Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 39:3 (2004)

ثنائية الحياة والموت في قصيدة "وصف الجبل" لابن خفاجة

محمود درابسة

تمهيد:

لقد عاش ابن خفاجة (٤٥٠– ٥٣٣هـ) في فترة صعبة من التاريخ العربي في الأندلس، وذلك بعد سقوط الدولة الأموية واستبداد العامريين بأمر الخلافة، حيث أخذ رؤساء الطوائف يستقلّون بإماراتهم التي يحكمونها، فعُرِفُوا بعد ذلك بملوك الطوائف، الذين امتدّ حكمهم من سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م ـ ٥٣٦هـ/ ١١٤١م[١].

وفي إطار هذه المتغيّرات التي أصابت الدولة العربية في الأندلس وتمزيقها إلى دويلات صغيرة، فقد استيقظت إسبانيا النصرانية لتواجه تلك الدويلات المتحاربة والمفككة الأوصال، واللاهية في الترف، إضافة إلى وقوف العنصر البربري في وجه هذه الدويلات أيضاً. وكذلك تعاون الإسبان النصارى مع النصارى في غرب أوربا، وبفعل هذه الأسباب مجتمعة فقد وهن ملوك الطوائف، واستطاع الإسبان في آخر الأمر من التغلّب على هؤلاء الملوك الضعاف وإنهاء حكم العرب الذي دام بين سنة ٩٢هـ وسنة ٨٩٨هـ أي ٧١١م إلى ١٤٩٢م[٢].

---

١ – الركابي، جودت: **في الأدب الأندلس**، دار المعارف بمصر، ط ٤، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٢٣.

٢ – انظر: غومس، غارسيا: **الشعر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط ٣، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ٤٤ – ٥٤، الدقاق، عمر: **ملامح الشعر الأندلسي**، دار الشروق، بيروت، ١٩٧٥م، ص ١٤.

DMHL

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

وإلى جانب التعصّب والاستبداد واللهو والحرية المفرطة التي أصابت الحياة في الأندلس(٣)، نشأت تيارات تدعو إلى الزهد والابتعاد عن ترف الحياة وملذاتها، ولعل ذلك يعود إلى فوضى الحياة السياسية، والاضطراب الذي شمل مناحي الحياة المختلفة مما شجع كل فرد على السعي إلى تخليص نفسه من غوائل الحياة والنجاة من برائن الأوضاع الاجتماعية السيّئة، مما جعل الزهد في الحياة مذهبا أدبياً أخلاقياً(٤). كما ساعدت الحرية التي سادت آنذاك على ظهور اتجاه فلسفي أثّر بشكل مباشر على الحركة الشعرية في الأندلس، فضلا عن شعر أبي العلاء المعرّي وأثره في شعراء الأندلس، كذلك إطلاعهم على العلوم الفلسفية التي نقلت إلى العربية آنذاك(٥).

وفي خضم هذه التقلّبات السياسية والفكرية في الأندلس عاش ابن خفاجة حياته، حيث عكف في صباه على المُجُون واللهو والتمتع بالطبيعة الأندلسية الغَنَّاءِ التي تركت أثراً بارزاً على شعره، كما أقلع في شيخوخته عن حياة اللهو والمجون إلى النسك والخوف من الموت بعد رحيل أصدقائه وبقائه وحيداً، حيث لم يتزوّج خلال حياته، مما دفعه إلى التعلق برجال الدولة(٦).

ولذا، فإن شخصية ابن خفاجة قد تأثرت أيضاً نتيجة للأحداث الجانحة التي منيت بها الأندلس، مما جعله ينأى بنفسه عن هذه الحياة المتوترة، وأن يميل إلى العزلة، وخاصة بعد عودته إلى مسقط رأسه شقر التي احتلها الإسبان أثناء الهجمات والمعارك المتواصلة بين ملوك الطوائف وجموع الإسبان بزعامة القمبيطور. ولذلك اتجه ابن خفاجة إلى الزهد والتوبة، وصار شديد الإحساس بدُنُوّ الأجل، وخاصة بعد أن تقدّمت به السنّ، وعاصر تلك الأحداث التي عصفت بالحياة الأندلسية، ورحيل أصدقائه، وبقائه وحيداً كئيباً دون زوجة أو صديق(٧).

وفي ضوء هذا التمهيد عن الأوضاع السياسة والفكرية في الأندلس وأثرها على شخصية ابن خفاجة ونظرته إلى الحياة وعلى شعره أيضاً، سوف يتناول هذا البحث قصيدة وصف الجبل التي

---

٣ – الركابي، جودت: **في الأدب الأندلس**، ص ٤٧ – ٤٨.

٤ – عباس إحسان: **تاريخ الأدب الأندلسي**، عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، ط ٥، بيروت، ١٩٧٨م، ص ١٣.

٥ – المرجع نفسه، ص ١٢٦.

٦ – المرجع نفسه، ص ٢٠٦، انظر: الركابي، جودت: **في الأدب الأندلسي**، ص ١٠٦، غومس غارسيا: **الشعر الأندلسي**، ص ٥٨ – ٥٩..

٧ – الدقاق عمر: **ملامح الشعر الأندلسي**، ص ١٩٠– ١٩٢، انظر: الركابي جودت: **في الأدب الأندلسي**، ص ١٠٦، الحميري حبيب: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، القاهرة، ١٩٣٧م، ص ٤٨، ١٠٣.

تمثّل نظرة ابن خفاجة إلى الحياة وتقلّباتها، كما تعكس نفسية ابن خفاجة وشخصيته. وهذه القصيدة النموذج تمثّل ظاهرة الموت والحياة عنده بشكل واضح، علماً أن ثمة قصائد أخرى تتناول هذه الظاهرة كقصيدة "وصف القمر" مثلاً[٨].

تعالج هذه الدراسة موقف ابن خفاجة من ثنائية الحياة والموت التي تتجلّى في ثنايا شعره وخاصة "وصف الجبل" التي تبرز فيها ثنائية الحياة والموت بشكل واضح، كما تكوّن هذه الثنائية جوهر النص وأساسه. ويحاول الشاعر من خلال هذا النص معاينة الوجود وسبر غور هذه الحياة للوصول إلى فلسفة خاصة به تتمثل في التجارب المختلفة التي مرّ بها، كما تعاين هذه القصيدة حركة الزمن الدائبة إزاء الحياة القصيرة الفانية، فالنص يجسّد مواجهة حقيقية للموت والفناء[٩].

وقراءة النص هنا تتناول كل جزئياته التي تتضافر معاً عبر السياقات التي تنصهر في صياغة واحدة تجسّد تجربة الشاعر وتوتره إزاء ظاهرة الموت والحياة. فالدراسة هذه تتناول اللغة ومستوياتها المختلفة، إضافة إلى الإيقاع والصورة بشكل متكامل، بحيث يعالج النص هذه العناصر الأساسية فيه معاً ودون تجزئة لها يفقدها الحيوية التي تتوافر لها من خلال تناولها مجتمعة مما يمنح النص الحيوية والقدرة المتجددة على إبراز هذه الإشكالية الإنسانية عبر الوجود في معاينة مسألة الموت والحياة من خلال هذا النص الشعري[١٠].

فالدراسة الأدبية ينبغي ألا تقتصر على تناول المظاهر الشكلية وتفسير الكلمات لغويا في معاينتها للنص الأدبي، ولكن يجب أن تتعداها وتتجاوزها بعد فهم النص واستيعابه إلى سبر جوهر النص الذي يجسّد نفسية الشاعر الحقيقية ورؤيته للحياة[١١]. وخاصة قصيدة "وصف الجبل" التي جاءت في ظروف صعبة مرّت على الشاعر، فجعلته يتأمل هذه الحياة ويحاول سبر كنه الموت وحقيقته من خلال رحيل أصدقائه وأحبابه، وبقائه وحيداً، مما جعل لهذه العزلة أثرا في تصوره للحياة.

---

٨ – انظر: صدوق، نور الدين: **حدود النص الأدبي**، دراسة في التنظير والإبداع، دار الثقافة، ط ١، الدار البيضاء، ١٩٨٤م، ص ٨.

٩ – انظر: فضل، صلاح: **بلاغة الخطاب وعلم النص**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، "سلسلة **عالم المعرفة** رقم ١٤٦"، الكويت، ١٩٩٢م، ص ٢٢٩.

١٠ – يمنى العيد: **في معرفة النص**، دار الآفاق الجديدة، ط ٣، بيروت، ١٩٨٥م.

١١ – صدوق نور الدين: **حدود النص الأدبي**، ص ٢٨.

كما تتناول الدراسة المظاهر الأسلوبية المتعلقة باللغة ومستوياتها، وإشكال التكرار، والإشارات البلاغية التي تعين على الوقوف على طبيعة تجربة الشاعر الفنّية التي استطاع من خلالها تجسيد فكرته عن الحياة والموت مما جعل منها فلسفة تشاؤمية خاصة وَسَمَتْ الشاعرَ بِسماتها.

يقول ابن خفاجة في قصيدة "وصف الجبل"(١٢):

بعيشك هل تدري أهوج الجنائب		تخب برحلي أم ظهور النجائبِ(١٣)
فما لحت في أولى المشارق كوكباً		فأشرقت حتى جبت أخرى المغاربِ
وحيداً تهاداني الفيافي فأجتلي		وجوه المنايا في قناع الغياهبِ(١٤)
ولا جار إلا من حسام مصمم		ولا دار إلا في قُتُود الركائبِ(١٥)
ولا أنس إلا أن أضاحك ساعة		ثغور الأماني في وجوه المطالبِ
بليل إذا ما قلت قد باد فانقضى		تكشّف عن وعد من الظنّ كاذبِ
سحبت الدياجي فيه سود ذوائب		لأعتنق الآمال بِبِيْضَ ترائبِ(١٦)
فمزقت جيب الليل عن شخص أطلس		تطلع وضَّاح المضاحك قاطبِ(١٧)
رأيت به قطعاً من الفجر أغبشاً		تأمّل عن نجم توقّد ثاقبِ
وأرعن طماح الذؤابة باذخ		يطاول أعنان السمآء بغاربِ(١٨)
يسدّ مهب الريح عن كل وجهة		ويزحم ليلاً شهبه بالمناكبِ
وقور على ظهر الفلاة كأنه		طوال الليالي مطرق في العواقبِ
يلوث عليه الغيم سود عمائم		لها من وميض البرق حمر ذوائبِ
أصخت إليه وهو أخرس صامت		فحدَّثني ليل السرى بالعجائبِ

١٢ – ابن خفاجة، أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة: **الديوان**، تحقيق سيّد غازي، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط٢، ١٩٧٩م، ص ٢١٥– ٢١٧.

١٣ – هوج الجنائب: رياح الجنوب الهوجاء، النجائب: مفردها نجيبة وهي الناقة الأصيلة.

١٤ – الغياهب: الظلمات.

١٥ – القتود: مفردها قتد، وهي أخشاب الرحل، الركائب: النوق.

١٦ – الدياجي: الظلمات، الترائب: عظام الصدر.

١٧ – الجيب: ما تحت فتحة العنق من الثوب، الأطلس: الأغبر ويريد به الأفق الذي اتضحت فيه ملامح الضوء.

١٨ – الأرعن: نعت للجبل المحذوف وهو الشديد النتوء، الباذخ: الشاهق، الغارب الظهر.

وقال ألاَ كمْ كنتُ ملجأً فاتك		ومَوطن أواه تبتل تائبِ
وكم مرّ بي من مدلج ومؤوب		وقَالَ بظلّي من مطيّ وراكبِ(١٩)
ولاطم من نكب الرياح معاطفي		وزاحم من خضر البحار غواربي(٢٠)
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى		وطارت بهم ريح النَّوَى والنوائبِ(٢١)
فما خَفْقُ أيْكِي غير رجفة أضلعٍ		ولا نَوْحَ وَرْقَى غير صرْخَة نادِبِ(٢٢)
وما غيض السلوان دمعي وإنَّما		نزفت دموعي في فراق الأصاحبِ(٢٣)
فحتى متى أبقى ويظعن صاحب		أودع منه راحلا غير آيبِ(٢٤)
وحتى متى أرعى الكواكب ساهراً		فمن طالع أخرى الليالي وغاربِ
فرحماك يامولاي دعوة ضارع		يمد إلى نعماك راحة راغبِ
فأسمعني من وعظه كل عبرة		يترجمها عنه لسان التجاربِ
فسَلَّى بما أبْكَى وسَرَّى بما شَجَا		وكان على ليل السرى خير صاحبِ(٢٥)
وقلت وقد نكبت عنه لطية		سلام فإنا من مقيم وذاهبِ(٢٦)

تتألف قصيدة "وصف الجبل" من ثلاث لوحات شعرية هي: البحث عن الحقيقة أو ما يمكن تسميته بالكشف عن كنه الحياة أو سرّ الوجود. وهذه اللوحة تمثّل صورة الشاعر أو الوجه الخارجي للشاعر حيث القلق والمعاناة والتِّيْه واستشراف كُنْهِ هذه الحياة. وأما اللوحة الثانية فهي لوحة وصف الجبل وتتمثل في البيت العاشر حتى البيت الثالث والعشرين، وتجسّد هذه اللوحة الصورة الداخلية للشاعر، وذلك من خلال الظلال التي تتركها صورة الجبل في النفس. فالجبل يمثّل إسقاطًا لمشاعر الشاعر ومعاناته. وتمثّل اللوحة الثالثة مرحلة إدراك كنه هذه الحياة وسبر غورها.

---

١٩ – أدلج: سار في الليل، وأوب وآب: رجع، قال: القيلولة وهي الاستراحة وقت الظهيرة، المطي: الحيوان من خيل وإبل.

٢٠ – ريح نكباء: شديدة عاصفة، المعاطف: الجوانب، الغوارب: مفردها غارب، وهو أعلى الشيء.

٢١ – النوى: البعد، النوائب: المصائب.

٢٢ – الأيك: الشجر المورق الملتف، الورق: الحمام.

٢٣ – غيض الماء أو الدمع: ذهب به وحبسه، سلاه: نسبه.

٢٤ – ظعن: سار وارتحل، آيب: راجع، عائد.

٢٥ – سرى: بدد الحزن وأبعد الغم والهم.

٢٦ – الطية: الجهة أو الناحية البعيدة، وكذلك النية والقصد، نكب و تنكّب: عدل وتنحّى وأعرض.

فالشاعر في هذه اللوحة يقف على سرّ الوجود المحير بالنسبة للإنسان، حيث يدرك حقيقة هذه الحركة والتغيّر والثبات في هذه الحياة، وذلك من خلال صورة الإنسان، وصورة الجبل والطبيعة.

لقد كشفت اللوحة الأولى المشكلة التي تلحّ على ابن خفاجة وعلى الإنسان الأندلسي بشكل عام وهي مشكلة الوضع الإنساني عامة. كما كشفت عن الوضع الأندلسي القلق والمتوتر والمتوجّس ازاء الواقع الذي كان يعيشه الفرد الأندلسي آنذاك وخاصة ما أصاب الحياة العامة للأندلس من تغير وتشرد ومواجهة حقيقية للموت، إنها تمثل مشكلة المصير الإنساني(٢٧). إن هذه المشكلة الإنسانية قد دفعت ابن خفاجة إلى القلق من الواقع الذي يعيشه، مما حدا به إلى التفكير في وجوده ومصيره(٢٨)، ومن هنا وجد نفسه أمام حقيقة تلح عليه هي حقيقة الحياة التي تمرّ بسرعة فتأخذ معها مرحلة الشباب، كما تفرّق الأصحاب والأحباب، وتترك الإنسان ينتظر الحقيقة المرّة المتمثلة في الموت والفناء. يقول ابن خفاجة: "فأين ما كان من تلك الأيام المتخيّلة من الأحلام؟ وأين من قد عرفنا وألفنا من الإخوان؟ بانوا وكأنهم ما كانوا، وفُقِدوا وكأنهم ما وجدوا ... ثم آه! على شباب قد انقلب، وذهاب قد اقترب، فلا تناجي إلا بعمل يتعقب، وأجل يترقب"(٢٩).

وقد بدأ الشاعر لوحته الأولى بمخاطبة الجبل مستخدماً أسلوب القسم بقوله:

بعيشك هل تدري أهوج الجنائب　　　تخب برحلي أم ظهور النجائب

فالعيش هو الإشكالية التي يعانيها الشاعر، فهي تمثل إشكالية الحياة عنده، فهو يواجه منذ البيت الأول حالةً من التغيّر والحركة الخفية اللاارادية المتمثلة في حركة الرياح أو حركة الراحلة التي يرتحل عليها. فقد تساءل الشاعر بشكل يجسّد حالة من الذهول والاندهاش إزاء هذه الحركة التي يقوم بها دون حسّ بطبيعتها. ولذلك يتساءل الشاعر مستخدماً أداة الاستفهام الهمزة فيقول: أهوج الجنائب أم النجائب هي التي تدفعه وتسبب له حالة عدم الاستقرار والثبات. ولعل هذه الحركة هي نتيجة لعدم الاستقرار النفسي عند الشاعر. فهو يواجه حركة دائبة لنواميس الطبيعة وقوانينها وكذلك للوضع العام في الأندلس حيث تقوم ممالك وتندثر أخرى على أنماط عجيبة، مما جعله يتأثر بها

---

٢٧ – عباس، إحسان: **تاريخ الأدب الأندلسي**، عصر الطوائف والمرابطين، ص ١٩٣.

٢٨ – انظر: عبد الخالق، أحمد محمد: قلق الموت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة **عالم المعرفة** رقم ١١١، الكويت، ١٩٨٧م، ص ٣٩.

٢٩ – ابن خفاجة: **الديوان**، ص ٦٤.

فيرتحل عن بلده مجبراً ويبقى يدور في دائرة التنقل وعدم الثبات، وهو حدا به إلى التفكير في قِوَى الطبيعة المتمثّلة في الرياح التي تعتبر رمزاً للتغيير والشؤم في آن معاً.

وقد تابع في لوحته رسم حالة الذهول والقلق في رحلته لكشف كنه هذه الحياة، حيث يعبِّر في البيت الثاني والذي يليه عن صدمته إزاء بحثه عبر المجهول من معرفة حركة سيره وتنقله وحيداً دون خِلٍّ أو رفيق، فهو يُبيِّن لنا ما يعتلج في صدره من الشعور بالوحدة بعد رحيل أصحابه وبقائه دون زواج في مواجهته لحقيقة الوجود. حيث بدأ الانفعال والتوتر واضحاً عند الشاعر من خلال تتابع الأبيات التالية:

وحيداً تهاداني الفيافي فأجتلي ... وجوه المنايا في قناع الغياهب

ولا جار إلا من حسام مصمّم ... ولا دار إلا في قُتُود الركائبَ

ولا أنس إلا أن أضاحك ساعة ... ثغور الأماني في وجوه المطالب

فالوحدة في إطار الصحراء الواسعة التي تخفي في ظلمتها الموت والفناء، تفرض على الشاعر مقاومة الخوف بالضحك ساعة أو بتذكر أهمية الجار والصديق، بعد أن أصبح بيت الشاعر هو راحلته التي ينتقل عليها، والتي تعكس حالة التغيّر وعدم الاستقرار، فالرحلة عبر الليل والظلمة تمتد إلى ما لا نهاية حيث يكشف الليل عن ليل جديد تتبدد فيه الآمال وتتلاشى فيه الأحلام والأماني:

بليل إذا ما قلت قد باد فانقضى ... تكشّف عن وعد من الظنّ كاذبِ

وقد بلغ التوتر والعنف أَوْجَهُ عند الشاعر في قوله:

فمزقت جيب الليل عن شخص أطلس ... تطلع وضاح المضاحك قاطب

إن استخدام الشاعر لصيغة المبالغة بقوله "فمزقت" تجسّد حالة العنف التي لجأ إليها الشاعر للكشف عن سرّ الوجود عبر رحلة الحياة، إذ واجه الشاعر في رحلته مشكلة التغيّر والزوال للممالك والدول، فأصابه ما أصاب هذه الممالك من التغيّر والتشرد ومواجهة الموت، مما جعله يعود بذاكرته إلى الماضي حيث السيف والقوة والراحلة التي كانت سبيلا إلى قوة العرب عبر حضارتهم الممتدة إلى زمن بعيد. فالشاعر يواجه تحدياً من الواقع الذي يعيشه، ومن الموروث الذي وصل إليه عن أجداده العرب. فقد كان الماضي يعني القوة والشموخ بينما يعني حاضر الشاعر الضعف والقلق والخوف والموت بحقيقته المرّة، ولذلك فقد أخذ يحاول الكشف عن سرّ الحياة وحقيقة الموت من خلال الطبيعة التي تمثّل وجوداً مستمراً تتبدل من خلاله الممالك والدول والأشخاص، بينما تبقى هي شاهداً على تحولات هذا الوجود وتغيّراته.

وتظهر الصورة الداخلية للشاعر من خلال اضفاء المشاعر الإنسانية على الجبل الذي بدوره يمثّل رمزا لشخصية الشاعر[٣٠]، بل إنه يمثّل حقيقة الشاعر نفسه، إذ أن ابن خفاجة لم يقصد تصوير الملامح الطبيعية البارزة في الجبل بقدر ما كان يريد تصوير ما تثيره هذه الملامح في نفسه. إذ أن الشاعر قد أسقط جميع أحاسيسه ومشاعره على الجبل، فَبَدَا هذا الجبل الشامخ الوقور إنساناً حيّاً يزيد مشاعر ابن خفاجة المرهفة إنسانية، ويبعث في نفسه الأمل والأناة مستمداً من أناة الجبل وطول تأمله العبرة والقدرة على مواجهة المصير.

فقد رسم الشاعر ملامح هذا الجبل بدقة متناهية وكأنه يرسم بالفعل ملامحه الخاصة بعد أن أخذ يشعر بُدنُوِّ أجله واستثقاله للحياة. فقد بدت صورة الجبل بشكل مُجسَّم تظهر عليه ملامح الكبر والشموخ والارتفاع، حيث يقف في وجه الرياح رمز التغيير والشؤم، تلك الرياح التي كانت تحرك الشاعر دون إرادة منه، يقول:

وأرعن طماح الذؤابة باذخ　　　يطاول أعنان السماء بغارب
بسد مهب الريح عن كل وجهة　　　ويزحم ليلا شهبه بالمناكب

إن صورة الجبل هي صورة الناسك المعمّر الذي يطرق متأملا حركة الزمن وتقلب الأمور ورحيل أناس ومجيء آخرين في حركة دائبة غير متوقفة، يعبّر عن ذلك فيقول:

وقور على ظهر الفلاة كأنه　　　طوال الليالي مطرق في العواقب
فما كان إلا طوتهم يد الردى　　　وطارت بهم ريح النوى والنوائب

وقد استطاع الشاعر من خلال البحر الطويل أن يوفر ايقاعاً قوياً ينفث من خلاله أحزانه وآلامه، ولهذا فإن القارئ يلمس ويحس من خلال حرف الباء الذي انتهت إليه القافية قوة وعنفاً يجسّد حالة الغضب والعنف التي تفور في قلب الشاعر ازاء تلك الحالة المبهمة التي تصيبه من خلال مراقبته ومعايشته لتقلبات الزمن، يقول:

فما خفق أيكي غير رجفة أضلع　　　ولا نوح ورقى غير صرخة نادب

ولهذا نلمس أن الشاعر قد قدم من خلال خطابه الشعري هنا مقاطع موسيقية مؤثرة كما هي الحال في البيت السابق حيث نجد قوله فما خفق أيكي، ثم رجفة أضلع، ونوح ورقى، ثم صرخة نادب، إذ أن كل مقطع يعبّر عن مشاعر حزينة تخرج من قلب الشاعر، فصورة حركة الأشجار في الغابة التي تشبه بأغصانها أشجار الغابة الفزعة من حال الزمن الذي يعايشه، انقلبت هنا من صورة

٣٠ – عباس، إحسان: **تاريخ الشعر الأندلسي**، عصر الطوائف والمرابطين، ص ٢٠٩ –٢٢٠.

جمالية لأغصان أشجار الغابة إلى صورة حزينة تنوح وتندب شبّهها بصرخة الملْهُوف والفَزِع الذي يواجه صدمة الحياة، ويترقب الانتهاء والفناء والموت.

وقد بلغت حدّة العاطفة والانفعال والتوتر أَوْجَهَا عند الشاعر والجبل معاً من خلال استثقالهما للحياة بعد رحيل الأصدقاء والأحبة. إن هذا الفراغ العاطفي قد جعل الشاعر يرى حياته في هذه المرحلة المتقدّمة من العمر عبثاً، إذ أن حدّة الصراع بين الحياة الثقيلة التي يعيشها الشاعر وبين الموت المرتقب قد برزت من خلال الأبيات المتتابعة التالية:

وما غيض السلوان دمعي وإنما   نزفت دموعي في فراق الأصاحب
فحتى متى أبقى ويظعن صاحب   أودع منه راحلا غير آيب
فحتى متى أرعى الكواكب ساهرا   فمن طالع أخرى الليالي وغارب

إن هذه الأبيات تركز على المعضلة الجوهرية في حياة الشاعر من خلال تنازعه بين الحياة المملّة الثقيلة وبين الموت المرعب المخيف. فقد كرّر الشاعر هنا على لسان الجبل قوله فحتى متى أبقى ثم وحتى متى أرعى الكواكب، وهنا تظهر إشكالية البقاء تجاه حركة الزمن الدائبة التي تركت الشاعر في فراغ عاطفي وحيداً يواجه العُزلة بعد رحيل أصدقائه، فنراه يراقب حركة الزمن وتغير الليل والنهار وكأنه قد أصبح مُعلقاً بهذه الحركة الدائبة دون إرادة منه، ولهذا فهو يتوجه بالتضرع إلى الله تعالى طلباً للراحة والطمأنينة[٣١]، بعد تململه من الحياة، وطول العمر، وقسوة العزلة والوحدة، فيقول:

فرحماك يامولاي دعوة ضارع   يمد إلى نعماك راحة راغب
فأسمعني من وعظه كل عبرة   يترجمها عنه لسان التجارب

إن النزعة الفلسفية التشاؤمية التي برزت بوضوح في هذا الخطاب الشعري تجسّد تفسيراً لثنائية الحياة والموت أو الحضور والغياب التي توصّل إليها الشاعر من خلال إسقاطه لمشاعره الإنسانية ومرارة تجربته على معلم من معالم الطبيعة التي تشهد التغيّرات البيئية وتخلد رغم تحولات الزمن وتقلّباته، وذلك أن هذه الحياة ليست إلاّ مرحلة تنتهي إلى رحلة قاسية تتمثل بالموت والفناء والغياب الدائم، ولهذا قال الشاعر:

وقلت وقد نكبت عنه لطية   سلام فإنا من مقيم وذاهب

إن هذه النتيجة التي توصّل إليها الشاعر في نهاية الأمر تشكّل حقيقة الاستسلام لسنّة الكون وطبيعة الحياة التي تتجسد فيها جدلية الموت والحياة أو الإقامة والرحيل. ولعل هذه النتيجة تمثّل

---

٣١ – الركابي، جودت: **في الأدب الأندلسي**، ص ١٠٨.

علاجاً نفسياً للشاعر بعد أن شهد ألوانا من التقلّب والتغيّر والارتفاع والانحطاط على صعيد الوضع العام في الأندلس وما أصاب الفرد الأندلسي فيه أيضاً من تشرد وعزلة ووَجْدَة وعذابِ ضميرٍ مِمَّا آل إليه الوجود العربي في الأندلس. ولهذا فقد لجأ الشاعر إلى الطبيعة الصامتة التي أحسّ من خلالها بالتغيّر النفسي وبالصراع بينه وبين الزمن من خلال ما يحدث عبره من تغيّر وتبدّل في الطبيعة والإنسان. ولأجل ذلك يمكن للمرء أن يلمس بوضوح نظرة الشاعر إلى الحياة من خلال النص حيث يبرز صراعه مع الحياة في مواجهة الموت في أسلوب قصصي(٣٢). حيث تتمثل فيه مناجاة النفس، بحيث يعكس هذا الجوُّ بعداً رُمنْسِيًّا واضحاً(٣٣).

وأخيراً، يمكن القول كذلك بأن هذا النص قد ساق مشكلة الموت والحياة التي أضفى الشاعر عليها نزعة فلسفية تشاؤمية بأسلوب قصصي ابتعد فيه عن الأسلوب التسجيلي، حيث وظّف أسلوب التكرار من خلال ترديده لبعض المقاطع والحروف، فضلا عن الإيقاع والنغم الموسيقي الذي جاء به "البحر الطويل" بشكل خدم النص الشعري خدمة فنّية جيدة وجميلة ومنحه حيوية وقوّة تتلاءم مع قوة الكلمة والنبر الذي نقل مشاعر الشاعر ومواجهته لهذه الإشكالية الإنسانية المتمثلة بثنائية الموت والحياة.

* * * *

٣٢ – السعيد، محمد مجيد: **الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس**، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م ص ١٣٨.

٣٣ – الدقاق، عمر: **ملامح الشعر الأندلسي**، ص ٢٥٢.